

مؤتمر قمة في حلف انتهت صلاحيته

الكاتب



جميل مطر

جميل مطر

الخميس، هو اليوم الثاني والأخير لمؤتمر قمة الدول الأعضاء في الحلف الأطلسي. ينعقد المؤتمر في بروكسل المدينة التي اختيرت لتكون أيضاً مقراً للسوق الأوروبية المشتركة، واستمرت مقراً للاتحاد الأوروبي. جدير بالذكر أن المنظمين تمران بمرحلة هي بالتأكيد ليست الأفضل في مسيرتهما. لن أذهب بعيداً، حيث ذهب آخرون في وصف الحال المتردية لعموم الجماعة الغربية، يكفي أن أذكر هنا بأن الرئيس دونالد ترامب – القائد الأهم شأنًا ومالاً ونفوذاً في الغرب – سبق له أثناء حملته الانتخابية أن اعتبر حلف الأطلسي مؤسسة منتهية الصلاحية. لم نكن نعرف الرجل. راح بنا الظن إلى اتهامه مرة بالجهل، ومرة بسوء اختيار مستشاريه، حتى دخل مكتبه البيضاوي وياشر هوايتي التغريد الصباحي، وإصدار الأوامر الرئاسية، وعندها تأكدنا أن الرئيس الجديد يكره المؤسسات، ويكره المبادئ الليبرالية. تأكدنا أن القائد الجديد للجماعة الغربية غير مؤمن بها، ولا يثق بقادتها، ويرى إبداعهم الوحيد في استنزاف ثروات الولايات المتحدة.

هم أيضاً تأكدوا. كانوا هناك، وكنا أمام الشاشات نشاهد، ونسمع بعض ما دار بين الرئيس ترامب، وزملائه في اجتماع قادة الدول السبع الكبرى في مدينة كيبك الكندية، كانوا قبلها مشاركين، وكنا مشاهدين في صقلية. كنا بعد ذلك في كل الدنيا نشاهد فصولاً متكررة من مسلسل لقاءات ترامب مع زعماء الغرب. قضينا أوقاتاً غير قصيرة نقارن هذه اللقاءات بلقاءاته بزعماء الصين، وروسيا، وكوريا الشمالية. لم يجامل ترامب رئيساً تحصل بلاده على معونة، أو دعم أمريكي، أو تستفيد استقراراً ورخاء من عضويتها في منظمة دولية تساهم واشنطن في دفع نفقات تسييرها، وتسليحها. كل الدنيا، في رأيه، مستفيدة من منظمة التجارة الدولية، ومن حرية التجارة، إلا أمريكا

أما رأينا فخلاصته أن الرئيس ترامب كان، ولا يزال، العنصر الكاشف لحال الضعف والتردي في الجماعة الغربية، وليس السبب فيه، كما يعتقد ويروج بعض قادة إعلام دول في أوروبا. الضعف الغربي سابق على حملة ترامب الانتخابية. ترامب لم يكتسب خصائص، وصفات، وتوجهات كثيرة لم تكن موجودة عنده قبل ترشحه لمنصب الرئاسة. ترامب لم ينشئ أتباعاً، أو ينفق على تشكيل جديد، بل وجد قاعدته الانتخابية جاهزة في انتظاره. ترامب لم يظلم قادة أوروبا، كان حريصاً على أن يضعهم في سلة واحدة مع سلفه الرئيس باراك أوباما. كان نصيب أوباما من اللوم أكبر، إذ اعتبره ترامب مسؤولاً عن كثير من سقطات الغرب. لم يتهمه بالتقصير في قيادة الغرب، لأنه هو نفسه لم يحاول- حتى لحظة كتابة هذه السطور- ممارسة حقه في تسيير دفة دول الحلف الغربي. لم يمارسه رغم أن بلاده لا تزال الممول الأكبر لميزانية الحلف الأطلسي. الحلف، في رأيه، لم يعد صالحاً لأداء دوره في الدفاع عن مصالح الغرب، وأصدقائه لأن الأعضاء لم ينفذوا تعهدهم رفع نسبة اشتراكاتهم في ميزانية الحلف إلى ما يصل إلى 2% من مجمل الدخل القومي لدولهم. حتى ألمانيا، الدولة الأغنى، وليست الأقوى، بين دول أوروبا لم ترفع مساهماتها إلى هذا الحد. المثال الألماني يطرح نفسه دائماً ليس فقط لأن ترامب لم يحب أسلوب أنجيلا ميركل، أو نظراتها القاسية، لكن ألمانيا متهمة في نظره بأنها واحدة من أكثر الدول استفادة من «الكرم» الأمريكي. سياراتها لها مكانة كبيرة في السوق الأمريكية، واليورو الذي يدعمه اقتصاد ألمانيا القوي بديل جاهز للدولار كعملة عالمية، إذا أحاطت الأزمات بأمريكا، وفي النهاية يوجد في ألمانيا 32 ألف جندي أمريكي وظيفتهم حماية ألمانيا وبقية دول الحلف. واقع الحال، كان أيضاً عنصراً كاشفاً لحال الغرب المتردي في المكانة والقوة. هنا، كما في غيره من العناصر الكاشفة، لم تكن أوروبا مسؤولة وحدها عن تراجع مكانة الغرب. أمريكا الدولة، القائد في الدفاعات الغربية، لا تزال مسؤولة بالقدر الأكبر منذ أن بدأت الحكومات الأمريكية المتعاقبة بعد عهد بوش الابن الانسحاب تهرباً من تكاليف المسؤولية الدولية. كذلك انكشف اليأس من احتمال نشأة نظام عالمي جديد يعلن الانتصار النهائي للغرب الديمقراطي الليبرالي على كل النماذج الأيديولوجية والثقافية القائمة في ذلك الحين. وقعت أزمات عدة لم يتدخل فيها الحلف الأطلسي، أو تدخل، كما حدث في أفغانستان والعراق، تغطية لجهود عسكرية أمريكية فاشلة، فارتدى عباءة الفشل ذاتها. تكرر الفشل مضاعفاً حين تحمس قادة الحلف لفكرة التمدد غرباً حتى حدود روسيا الغربية. أقاموا في دويلات البلطيق قواعد للحلف، وتفاوضوا مع رومانيا والمجر، وحين نشبت أزمة أوكرانيا لم يتمكن الغرب، ممثلاً في القوة السياسية للاتحاد الأوروبي بقيادة ألمانيا، ولا بالقوة العسكرية لحلف الأطلسي، من إنقاذ أوكرانيا، وكانت الخيبة أشد حين أعلنت روسيا ضم القرم إليها. أي حلف هذا يستحق تقدير أعضائه، خاصة الجدد، إذا فشل في وقف التمدد الروسي الجديد، أو حتى التهديد به. تعالوا نضيف إلى قائمة فشل الحلف تقصيره في التصدي لآخر شكل من أشكال الحرب الروسية ضد الغرب. وأقصد الحرب بوسائل إلكترونية، كالتدخل في الانتخابات، ونشر الأخبار الكاذبة، وبث الوقيعة داخل الجماعة الغربية، بل وداخل كل دولة على حدة. هذه الحرب يمكن لو تركت من دون تدخل من جانب الأطلسي أن تشعل فوضى عارمة، فتقوم أنظمة حكم فاشية، وشعبوية يسارية تفكك الرابطة الغربية. أتوقع على كل حال أن تكون هذه الحرب الإلكترونية محل نقاش في اجتماع قمة الحلف

بعد أيام يلتقي في هلسنكي الرئيسان دونالد ترامب، وفلاديمير بوتين، ترامب زعيم الغرب يتفاوض مع الرجل الذي تحمل مسؤولية إعادة روسيا إلى مكانة يعتقد أنها تستحقها، لولا تأمر دول الغرب عليها، هناك في هلسنكي سوف يجلس ترامب ممثلاً للجماعة الغربية، جماعة تضم ميركل الخارجية لتوها مثخنة بالجراح من معركة قد تكون آخر معاركها الانتخابية، تضم أيضاً تيريزا ماي المهتدة حكومتها بالانفراط تحت وقع معارك بريكست، وجميعها معارك ساخنة، هناك أيضاً إيطاليا بقيادة مزدوجة الهوية السياسية والاقتصادية، وكانت منذ اليوم الأول عدواً لمشروع الوحدة الأوروبية، هذه هي

قيادة الغرب التي يتفاوض باسمها مكرها السيد ترامب، يبقى طبعاً السيد ماكرون الذي يستطيع أن يفاخر بوتين باعتباره الزعيم الأقوى في الجماعة الغربية.

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024.